

أضواء البيان

@ 370 @ .

الأول أنه خبر مبتدأ محذوف ، وتقديره ، الأمر كذلك ، ولا محالة أن تلد الغلام المذكور .
وقيل ، الأمر كذلك أنت كبير في السن ، وامرأتك عاقر . وعلى هذا فقوله { قَالَ رَبِّ سُبْحَانَكَ }
ابتداء كلام : .

الوجه الثاني أن (كذلك) في محل نصب ب (قال) وعليه فالإشارة بقوله (ذلك) إلى مبهم
يفسره قوله : { هُوَ عَالِيٌّ هَيِّنٌ } ونظيره على هذا القول قوله تعالى :
وَقَضَيْتَ لَهَا إِذْ أُولِيَهَا ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنْ لَا تَبْرَأَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ
مُّصَدِّقِينَ . وغير هذين من أوجه إعرابه تركناه لعدم وضوحه عندنا . وقوله { هُوَ
عَالِيٌّ هَيِّنٌ } أي يسير سهل . .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : { وَفَدَّ خَلْقًا تَكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا }
أي ومن خلقك ولم تك شيئاً فهو قادر على أن يرزقك الولد المذكور كما لا يخفى .
وهذا الذي قاله هنا لذكريا : من أنه خلقه ولم يك شيئاً أشار إليه بالنسبة إلى الإنسان
في مواضع أخر . كقوله : { أَوْلَا يَذُكُرُ إِلَّا نَسَانُ أَنْزَلْنَا خَلْقًا نَاهُ مِنْ قَبْلُ
وَلَمْ يَكُ شَيْئًا } ، وقوله تعالى : { هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ
الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا } . .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة { وَلَمْ تَكُ شَيْئًا } دليل على أن المعدوم ليس
بشيء . ونظيره قوله تعالى : { حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا } ، وهذا هو
الصواب . خلافاً للمعتزلة القائلين : إن المعدوم الممكن وجوده شيء ، مستدلين لذلك بقوله
تعالى : { إِزْمَأْمَأَ أَمْرُهُ إِذْ آوَرَّادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ }
قالوا : قد سماه □ شيئاً قبل أن يقول له كن فيكون ، وهو يدل على أنه شيء قبل وجوده .
ولأجل هذا قال الزمخشري في تفسير هذه الآية : لأن المعدوم ليس بشيء . أو ليس شيئاً يعتد
به . كقولهم : عجبت من لا شيء . وقول الشاعر : إِزْمَأْمَأَ أَمْرُهُ إِذْ آوَرَّادَ شَيْئًا
أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } قالوا : قد سماه □ شيئاً قبل أن يقول له كن فيكون ،
وهو يدل على أنه شيء قبل وجوده . ولأجل هذا قال الزمخشري في تفسير هذه الآية : لأن
المعدوم ليس بشيء . أو ليس شيئاً يعتد به . كقولهم : عجبت من لا شيء . وقول الشاعر : %
(وضافت الأرض حتى كان هاربهم % إذا رأى غير شيء طنه رجلا) % .

لأن مراده بقوله : غير شيء ، أي إذا رأى شيئاً تافهاً لا يعتد به كأنه لا شيء لحقارته

ظنه رجلاً ، لأن غير شيء بالكلية لا يصح وقوع الرؤية عليه . والتحقيق هو ما دلت عليه هذه الآية وأمثالها في القرآن : من أن المعدوم ليس بشيء ؟ والجواب عن استدلالهم بالآية : أن ذلك المعدوم لما تعلق الإرادة بإيجاده ، صار تحقق وقوعه كوقوعه بالفعل ، كقوله { أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ } ، وقوله : { وَنُفِخَ فِي الصُّورِ } ، وقوله : { وَأَشْرَقَتِ الْأَشْهُارُ رُضًا بِنُورِ رَبِّهَا } وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَتْ بِالنَّاصِيئَاتِ {